أبطال الإسلام

سيف الدين قطز

(بطل عين جالوت)



المجد

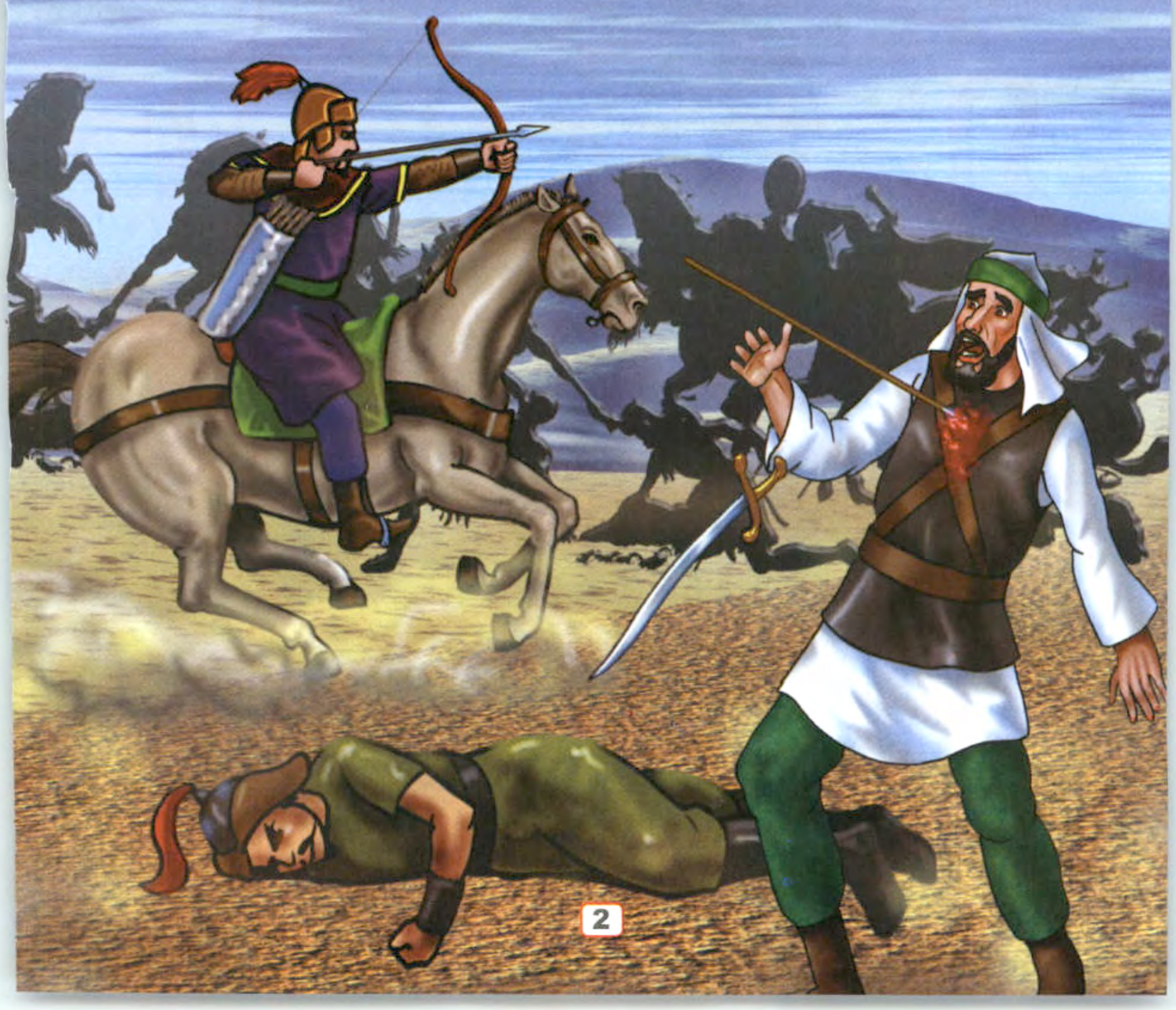
تأليف: د/ على راشد

رسوم: ماهر عبد القادر

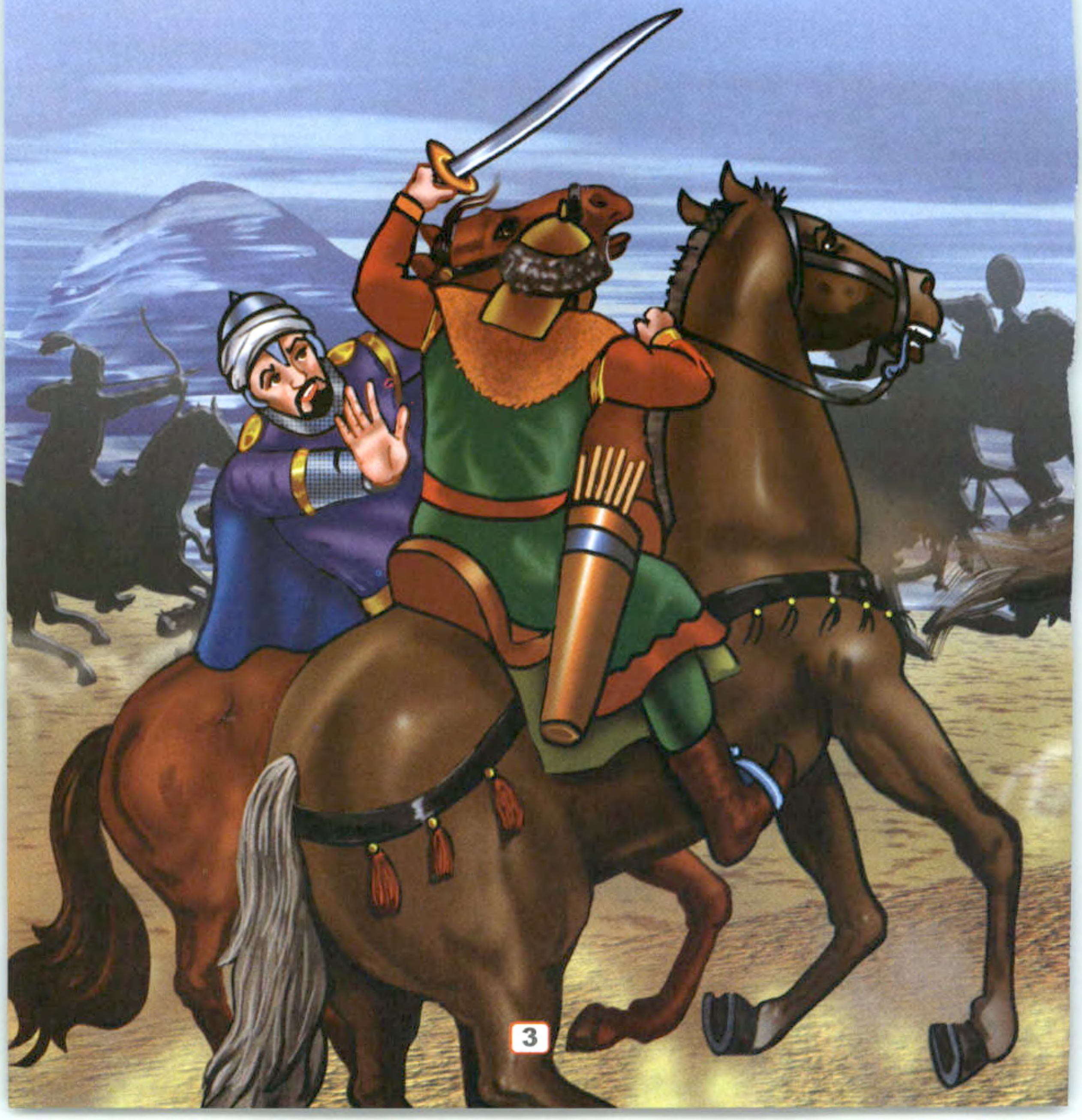
برقم إيداع 2013/7079

المجد للنشر والتوزيع 0106372799

يُعَدُّ "سَيْفُ الدِّينِ قُطُزُ" وَاحدًا مِنْ أَبْنَاءِ أَهَمِّ الْأُسَرِ الْحَاكِمَةِ فِى الْعَالَمِ الْإِسْلَامِىِّ، وَهِىَ تِلْكَ الْأُسْرَةُ الَّتِى كَانَتْ تَحْكُمُ بِلَادَ خُوَارِزْمَ (إِقْلِيمَ كَرْمَانَ الْحَالِىَّ جَنُوبَ إِيرَانَ) فِى الْقَرْنِ الثَّالِثَ عَشَرَ الْمِيلَادِىِّ.



وَالاسْمُ الْأَصْلىُّ لـ "سَيْفِ الدِّينِ قُطُزَ" هُوَ "مَحْمُودُ بْنُ مَمْدُود"، وَهُوَ ابْنُ أُخْتِ السُّلْطَانِ جَلَالِ الدِّينِ خُوَارِزْم شَاهْ" الَّذى تَصَدَّى بَعْدَ أَبِيه لِهَجَمَاتِ الْمُغُولِ، وَحَقَّقَ عِدَّةَ انْتِصَارَاتٍ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنَّهُ هُزِمَ أَخِيرًا وَقُتِلَ.



وَأَصْبَحَ "قُطُزُ" مَمْلُوكًا وَتَمَّ بَيْعُهُ ضِمْنَ مَمَالِيكِ "عِزِّ الدِّينِ أَيْبَكَ" فِى مِصْرَ.

وَأَحَبَّ الْأَمِيرُ "عِزُّ الدِّينِ" الْمَمْلُوكَ "قُطُزَ" وَعَمِلَ عَلَى تَرْقِيَتِهِ حَتَّى صَارَ أَكْبَرَ مَمَالِيكِهِ، وَكَانَ يَحْكُمُ مِصْرَ فِى هَذِهِ الْآوِنَةِ السُّلْطَانُ "نَجْمُ الدِّينِ أَيُّوبُ"، وَالَّذِى تَزَوَّجَ مِنِ امْرَأَةٍ قَوِيَّةٍ هِىَ "شَجَرُ الدُّرِّ".



وَظَهَرَ الْخَطَرُ الصَّلِيبِىُّ الَّذِى وَصَلَ لِلْبِلَادِ مِنْ خِلَالِ حَمْلَةِ "لويس التَّاسِع" وَتَصَدَّى الْجَيْشُ الْمِصْرِىُّ بِقِيَادَةِ الْمَمَالِيك لِهَذِهِ الْحَمْلَةِ، وَأَبْلَى هَؤُلَاءِ الْمَمَالِيكُ - خَاصَّةً قُطُز مَمْلُوك الْأَمِير عِزّ الدِّين، وَبِيبَرْسَ مَمْلُوكَ الْأَمِير "أَقْطَاى" - بَلَاءً حَسَنًا فِى تِلْكَ الْمَعَارِكِ الَّتِى انْتَهَتْ بِهَزِيمَةِ الصَّلِيبِيِّينَ وَأُسِرَ قَائِدُهُمْ "لويس التَّاسِعُ" فِى دَارِ ابْنِ لُقْمَانَ فِى الْمَنْصُورَةِ.



وَفى أَثْنَاء احْتدَام هَذه المَعَارك مَاتَ السُّلْطَانُ "نَجْمُ الدِّين أَيُّوبُ"، فَأَخْفَتْ "شَجرُ الدُّرِّ" الْخَبَرَ حَتَّى انْتَهت الْحَرْبُ فَأَعْلَنَتْ خَبَرَ مَوْت السُّلْطَان، وَطَلَبَتْ منْ وَلىِّ الْعَهْد "تُورَانْ شَاهْ" الْحُضُورَ منْ أَحد الْحُصُون فى فلَسْطينَ إلَى مصْرَ ليَتَوَلَّى عَرْشَ مصْرَ، وَلَكنَّ "تُورَانْ شَاهْ" لَمْ يُقَدِّرْ لزَوْجَة أَبِيه حرْصَهَا عَلَى أَنْ يَعْتَلىَ الْعَرْشَ، بَل اتَّهَمَهَا بسَرقَة مَال أَبيه، فَتَمَّ اغْتيَالُ "تُورَانْ شَاهْ"، وَكَانَ مَوْتُهُ يَعْنى الانْتهَاءَ الْفعْلىَّ لحُكْم دَوْلَة الْأَيُّوبيِّينَ عَلَى مصْرَ والشَّام بَعْدَ اسْتمْرَار دَامَ حَوالَىْ ثَمَانينَ عَامًا. وَاعْتَلَتْ "شَجَرُ الدُّرِّ" كُرْسىَّ السَّلْطَنَة عَلَى مصْرَ وَالشَّام، ثُمَّ تَزَوَّجَت الْأَميرَ عزَّ الدِّين أَيْبَك.



وَأَوْعَزَ الأَمِيرُ "عِزُّ الدِّينِ" إِلَى "قُطُزَ" بِضَرُورَةِ التَّخَلُّص مِنَ الأَمِيرِ "أَقْطَايْ"، فَتَمَّ اغْتِيَالُهُ، وَفَرَّ أَتْبَاعُهُ مِنَ الْمَمَالِيكِ وَعَلَى رَأْسِهِمْ "بِيبَرْسُ" إِلَى الشَّامِ.



وَتَآمَرَتْ "شَجَرُ الدُّرِّ" عَلَى اغْتِيَالِ زَوْجِهَا الأَمِيرِ "عزِّ الدِّين أَيْبَكَ" لأَنَّهُ تَزَوَّجَ مِنْ أُخْتِ أَمِيرِ الْمَوْصل، وَانْتَقَمَتْ ضَرَّتُهَا "أُمُّ عَلِيٍّ" مِنْهَا فَقَتَلَتْهَا، وَأَصْبَحَ وَلَدُهَا السُّلْطَانُ "مَنْصُورُ عَلِيٌّ" هو سُلْطَانَ مِصْرَ رَغْمَ أَنَّهُ مَا زَالَ طِفْلاً.



وَأَصْبَحَ "قُطُزُ" نَائِبًا لَهُ، الَّذى أَصْبَحَ الْحَاكِمَ الْفِعْلِىَّ لِمِصْرَ فَعَمِلَ عَلَى حِفْظِ كَرَامَةِ مِصْرَ، وَسَلَامَةِ أَرَاضِيهَا، وَارْتَبَطَ بِعَلَاقَةٍ وَثِيقَةٍ بِالشَّيْخِ "الْعِزِّ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ"، قَاضِى قُضَاةِ مِصْرَ، وَسَانَدَ قُطُزَ فِى حُكْمِ مِصْرَ بِالْعَدْلِ وَالنَّزَاهَةِ.



وَتَوالَت الأَخْبَارُ السَّيِّئَةُ عَلَى الْقَاهِرَة بِسُقُوط بَغْدَادَ فى يَد الْمَغُول، وَقُتل الْخَلِيفَةُ الْمُسْتَعْصِمُ بِاللَّه وَتَحَرَّكَتْ جَحَافِلُ الْمَغُول نَحْوَ الشَّام فَسَقَطَتْ مُدُنُهَا الْكُبْرَى فى يَد "هُولاَكُو"، وَكَانَتْ مِصْرُ التَّالِيَةَ لِلْمَغُول، وَأَرْسَلَ "هُولاَكُو" رِسَالَةَ تَهْدِيدٍ لِقُطُز، وَكَانَتْ فَحْوَى الرِّسَالَة إِمَّا الاسْتِسْلاَمَ وَإِمَّا الْمَوْتَ.



فَقَامَ قُطُزُ بقَطْع أَعْنَاق وَفْد "هُولاكُو"، وَنَادَى بالْجهَاد فى سَبيل اللّه، وَبَدَأَ الاسْتعْدَادَ للْمَعْرَكَة الْفَاصلَة مَعَ الْمَغُول، وَرَجعَ بَعْضُ الْمَماليك - وَمنْ بَيْنهمْ بيبَرْسُ - منَ الشَّام إلَى مصْرَ ليَشْتَركُوا فى قتَال الْمَغُول.



وَكَلَّفَ "قُطُزُ" الشَّيْخَ "الْعِزَّ بْنَ عَبْدِ السَّلَامِ" بِضَرُورَةِ أَنْ يَعْمَلَ عَلَى أَنْ تَظَلَّ الرُّوحُ الْحَمَاسِيَّةُ بَيْنَ أَفْرَادِ الشَّعْبِ مُتَّقِدَةً فِى الصُّدُورِ وَذَلِكَ بِإِلْقَاءِ الْخُطَبِ الْحَمَاسِيَّةِ هُوَ وَالشُّيُوخُ الْآخَرُونَ.

وَتَحَرَّكَتْ مُقَدِّمَةُ الْجَيْشِ الْمِصْرِى بِقِيَادَةِ "بِيبَرْسَ" فِى شَرْقِ الْبِلَادِ، وَهُنَاكَ فِى أَرْضِ فِلَسْطِينَ الْتَقَتْ مُقَدِّمَةُ جَيْشِ الْمَغُولِ، فَانْتَصَرَتْ عَلَيْهِنَّ الْقُوَّاتُ الْمِصْرِيَّةُ.



وَوَصَلَ قُطُزُ إلَى فَلَسْطِينَ وَانْضَمَّ بِجَيْشِهِ مَعَ جَيْشِ "بِيبَرْس"، وَصَارَ الْجَيْشُ كُلُّهُ إلَى مَنْطَقَة "عَيْنِ جَالُوتَ" حَيْثُ يُعَسْكِرُ جَيْشُ الْمَغُول بِقِيَادَة "كَتْبُغَا" - حَيْثُ سَافَرَ هُولاَكُو إلَى بِلاَدِهِ لاخْتِيَارِ الْخَانِ الأَعْظَمِ الْجَدِيدِ، لأَنَّ الْخَانَ الأَعْظَمَ مَاتَ.



وَالْتَقَى الْجَيْشَانِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ الْمُوَافِق ٢٥ رَمَضَانَ عَامَ ٦٥٨ هـ - ٣ سبتمبر عَامَ ١٢٦٠م – وَحَاوَلَ بَعْضُ الْفُرْسَانِ الْمَغُولُ أَنْ يَقْتَرِبُوا منْ قُطُزَ فى مُحَاوَلَة لقَتْله، فَأُصيبَ أَعْلَى ذراعه، وَصَاحَ الْمَغُولُ: قُتلَ قُطُزُ، وَحَدَثَ ارْتبَاكٌ فى صُفُوف الْجَيْش الْمصْرىِّ عنْدَ سَمَاعهمْ هَذَا الصِّيَاحَ إِلَّا أَنَّ قُطُزَ قَامَ بخَلْع خَوْذَته النُّحَاسيَّة الَّتى تَحْمى رَأْسَهُ وَأَلْقَاهَا عَلَى الْأَرْض، وَصَاحَ بكُلِّ قُوَّةٍ: وَاإِسْلَامَاهْ... وَاإِسْلَامَاهْ.



وَأَلْهَبَتْ هَذِه الصَّيْحَاتُ حَمَاسَةَ كُلِّ الْجُنُود، فَانْطَلَقُوا بِكُلِّ قُوَّة صَوْبَ الْجَيْشِ الْمُغُولِىِّ، وَاسْتَطَاعَ "قُطُزُ" قَتْلَ "كَتْبُغَا" قَائد الْمُغُول، فَصَاحَ الْمِصْرِيُّونَ: وَاإِسْلامَاهْ.. قُتِلَ كَتْبُغَا.. وَانْهَزَمَ جَيْشُ الْمُغُول شَرَّ هَزِيمَة فِى مَعْرَكَة "عَيْن جَالُوتَ" بِقِيَادَة الْقَائد الْمُسْلم الْفَذِّ "سَيْف الْإِسْلَام قُطُزَ"، وَبَعْدَ الْمَعْرَكَة جَمَعَ كُلَّ أَفْرَاد جَيْشه وَصَلَّى بِهِمْ صَلَاةَ شُكْر لِلّه عَزَّ وَجَلَّ عَلَى هَذَا النَّصْر، وَأَرْسَلَ رِسَالَةً إِلَى الْقَاهِرَة تُخْبِرُ سُكَّانَهَا بِنَبَأِ هَذَا النَّصْرِ الْكَبِيرِ عَلَى الْمُغُولِ.



وَفى طَريق الْعَوْدَة وَعنْدَ بَلْدَة "الصَّالحيَّة" طَلَبَ قُطُز من جَيْشه أَنْ يَتَوَقَّفَ للرَّاحَة وَتَآمَرَ "بيبَرْسُ" مَعَ بَعْض الْمَماليك عَلَى قَتْل "قُطُز" الَّذى كَانَ يَنْوى أَنْ يَتْرُكَ الْحُكْمَ لـ "بيبَرْس"، وَلَكنَّ هَذَا الأَخير لَمْ يُمْهلْهُ فَتَخَلَّصَ منْهُ.

هَكَذَا مَاتَ الْبَطَلُ "قُطُزُ" بطَعَنَات الْغَدْر وَالْخيَانَة، مَاتَ بَعْدَ أَنْ حَقَّقَ أَغْلَى أَمَانيه وَهىَ تَحْقيقُ الانْتصَار السَّاحق عَلَى الْمَغُول الَّذى أَدَّى إِلَى انْحسَار نُفُوذهمْ فى الْمنْطَقَة الْعَرَبيَّة نهَائيًّا.

